التجديد حقيقةً ومفهومًا

أ. د/ طه جابر العلواني

هو مفهوم قرآنيّ ورد ومشتقاته في بعض الآيات الكريمة ليدل على كل مَا أحدث إنشاؤه، جاء في قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (**ق:15**)، في إشارة إلى النشأة الثانية؛ لأنها بمثابة الإنشاء المستحدث وقوله: ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ**﴾ (**فاطر:27**) يريد الطرق التي يسلكها الناس في الجبال فيصبح المسلوك كأنَّه أبيض من كثرة المشي ويطلق على الفيض الإلهيّ «**جدّ**» ومنه قوله (تعالى): ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا**﴾ (**الجن:3**) أي فيضه ونعمه. وفي دعاء رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم: «**لا ينفع منك ذي الجد الجد**».

وتنطوي على معنيين:

المعنى الأول: الجدود، أي آباء الآباء الذين ينتسب الناس إليهم وقد يفتخرون بذلك.

والمعنى الثاني: الجد بمعنى السعي الجاد في الطاعة الَّذِي لا ينفع وحده مَا لم تخلص النية فيه فيتقبله الله (جل شأنه)، وفيه نفي لانتفاع الإنسان بجده وسعيه إذا لم يكن هناك قبول من الله (جل شأنه). كما يطلق الجد على أب الأب والأم، ويطلق على الليل والنهار الجديدان فكأنَّ كل ليل وكل نهار جديد. وفي الثياب يقابل الجديد الخلق من الثياب.

والتجديد على هذا أن تزال آثار القدم عن الشيء حتى يبدو كأنَّه جديد أُنشأ للمرة الأولى أو أُنشأ نشأة أولى. ويطلق التجديد على الأمور الماديَّة والحسيَّة مثل تجديد الأبنية والثياب وما إليها، وعلى الأمور المعنويَّة مثل تجديد الأفكار والمعارف بالإضافة إليها وإعادة صياغتها وتقديمها بحيث تبدو وكأنَّها أفكار جديد مبتكرة.

وبلى الأفكار وقدمها يحدثان نتيجة أمرين:

الأول: إنَّ الأفكار والمعارف تولد ومعها أزماتها بشكل بذور كامنة فيها مثل الأدوية وأعراضها الجانبيَّة، فالأصل في الدواء أنَّه يُستشفى به وفيه شفاء للناس؛ لكنه مَا من دواء إلا ويحمل معه وفي طياته أعراضًا جانبيَّةً تبرز مع طول الأمد وقسوة القلوب وتتسع وتنتشر حتى تصبح في أحيان كثيرة أكثر أو أقوى من الجوانب الأساسيَّة السليمة في ذلك الفكر عندما نشأ.

الثاني: وسنَّة التقادم وطول الأمد مَا ينتج عنها من قسوة في القلوب تجعل تلك الأفكار في حاجة ماسّة إلى التجديد وإعادة النظر لئلا يصبح إثمها أكبر من نفعها وشرها أكثر من خيرها بطول الأمد وقسوة القلوب وتلك سنة إلهيَّة تلحق المحسوسات واللامحسوسات فكما يتغير اللحم والدواء والطعام بطول الأمد يتغير تأثير الأفكار بطول الأمد وقد تتحول الفكرة من فكرة إحيائيَّة باعثة تجلب للناس خيرًا كثيرًا إلى فكرة قاتلة ومميتة تجلب للناس الشر بدلًا من الخير.

فلو أنَّ أحدًا من الناس فسَّر قول (تعالى): ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ (**الأنفال:60**) بالسيوف والرماح ليقابل بها الأسلحة الذرية والكيمائيَّة لاعتبرناه طالبًا من المسلمين أن ينتحروا؛ لكنه لو التفت إلى قوله (تعالى): «**مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**» إلى ملاحظة تطور القوة لأمكنه أن يقول: كان المستطاع الوصول له قبل اكتشاف البارود هُوَ كذا والآن يجب أن يتطور هذا المفهوم ليصبح دالًا على كذا وكذا لاختلف الأمر.

ولو دخل طبيب اليوم لكليَّة الطب ليدرِّس لهم «**القانون لابن سينا**» والوصفات الطبية التي كان يصفها هُوَ والرازي وأمثلهما لمرضى أزمانهم لربما قتل كثير من مرضى اليوم بمثل تلك الأدوية، أو لم ينتفعوا بها في أقل تقدير؛ لكنه لو جعل «**قانون ابن سينا**» كتابًا يمثل مرحلة تاريخيَّة من مراحل تطور العلوم الطبية لمَ كان هناك إشكال. وكذا الحال في أمور كثيرة وإذا كان كر الجديدين يبلي الثياب والأبنية والألبسة ويحولها إلى أشياء خلقة، فإنَّ عالم الأفكار تجري عليه السنن نفسها فتتقادم الأفكار وتخلق وتبرز أعراضها الجانبيَّة إلى درجة قد تذهب فوائدها بالكليَّة أو بشكل جزئيّ. ومن هنا كان «**التجديد**» سُنَّة

إلهيَّة عرَّف الله البشريَّة بها؛ ليكون وسيلتهم للتجديد لمواجهة سنة التقادم والبلى وتراجع الأشياء عن خصائصها.

والفكر الدينيّ مثل أيّ فكر إنسانيّ؛ هُوَ فكر إنسانيّ في قضايا دينيَّة، إذا كان الدين لا يبلى ولا يحمل أعراضًا ذاتيَّة لصدوره عن الأزلي (جل شأنه) رب العالمين الخالق للزمان والمكان والإنسان الَّذِي لا يحيط الزمان بعلمه ولا بتدبيره وقد عصمه الله (جل شأنه) من أعراض الفكر الإنسانيّ، فذلك لا يعني أنَّ السنن الخاصّة بالوحيّ الإلهيّ نفسه يمكن أن تنسحب على الأفكار الإنسانيَّة في فهم الوحي وتفسيره وتأويله لإدراكه إنسانيًّا بمستوى من مستويات الإدراك، فالفكر الإنسانيّ وإن دار حول الوحي بمحاولات الفهم والتفسير والتأويل فإنَّه يستحيل أن يتمتع بصفات الوحي ذاتها وخصائصها وقدسيتها فيبقى النص الإلهيّ وحيًا مستوعبًا ومتجاوزًا ومصدقًا ومهيمنًا، أم الفكر البشريّ فيه فإنَّه يبقى فكرًا بشريّا لا يصدق ولا يهيمن ولا يستوعب ولا يتجاوز ولا يكتسب من صفات النص شيء وإن تمتع بشرف دورانه حول النص الموحى.

الزمن والتقادم والبلى:

أشرنا إلى طول الأمد وقسوة القلوب ونبهت كلمة طول الأمد إلى الزمن وما يحمله لعالم الأشياء وعالم الأفكار. فالزمن مخلوق إلهيّ غامض لا نحسه ولا ندرك حقيقته لكننا نشعر بعلاماته كالشمس والقمر والنجوم وما يترتب على حركتها من ليل ونهار وشهور وسنين ودهور وقرون كما إنَّنا ندرك وسائل تقسيمه وبعض عوارضه ومواسمه ونستطيع أن نميز كثيرًا من أثاره التي لا تحصى في أنفسنا وأبداننا وعقولنا ومداركنا وسائر التغيرات التي تكتنف حياتنا من حمل وولادة وطفولة وتميّز ومراهقة وشباب وكهولة وشيخوخة ووفاة.

أمَّا «**الموت**» فهو مرحلة ذات بعد زماني مغاير للبعد الزمنيّ الَّذِي نعاصره في الحياة الدنيا، وقد أزال القرآن الكريم كثير من العوارض التي ألحقها الجاهلون بالزمن فأعاد توعية الناس به وبدوراته، وأعاد الوعي بالأيام والشهور والساعات وعرف بالشمس والقمر وإنَّ من أهم الفوائد المترتبة على وجودهما هُوَ

أن يعلّم البشر عدد السنين والحساب أي تقسيم الزمن إلى أجزاء بدلًا من تركه في حالة امتداد دون تقسيم، ومن الطريف أنَّ الحكماء المتقدمين حاولوا تعريف الزمن بأنَّه: «**مقدار حركة الفلك الأطلس**» أمَّا المتكلمين فقد عرفوه بـ:«**مقدر معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم**».

وفي القرآن الكريم كعادته تنبيهات كثيرة بفوائد الوعي بالزمن وتنظيم الحياة والواقع بمقتضاه، وحينما يقرأ القارئ القرآن يدرك بالأعراض المذكورة بالقرآن والمتعلقة بالزمن المعاني الكثيرة التي توحي للإنسان بوعي بالزمن وتقسيماته. ويعد سيدنا إبراهيم من أوائل الأنبياء والرسل الذين عنوا بربط التوحيد وقضايا الدين الكبرى بوسائل الزمن وأدواته وعمل على كسر فكرة الخلود الإنسانيّ في هذه الحياة الدنيا وأن لا آخرة بربطه بين التوحيد وأدوات الزمن ووسائله؛ لينبه أنَّ الزمان ليس دورات متعاقبة لا تنتهي بالفناء والعدم بل هُوَ وعاء خلود الإنسان في هذه الحياة بأشكال مختلفة، فالإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يكون في حالة تجدد مستمر؛ بل يدركه البلى وأنَّ الخلود مرتبط بطي السماء كطي السجل للكتب. ولذلك فإن من المهم جدًّا في قضيَّة التجديد أن ندرك الزمن وطبيعته وأن نميز بين الخلود والتجدد والتجديد وأن ندرك أنَّ التجديد لا يعني التحكم في الزمن، فالذي يتحكم في الزمن هُوَ رب العالمين خالق الزمان، وأنَّ هناك أفكارًا قد لا يلتفت البعض إلى خطورتها كالفكر السكونيّ الَّذِي يرى إمكان إعادة إنتاج أي حقبة تاريخيّة ماضية في حقبة أخرى، وهذا يتناسب مع أفكار أولئك القائلين: إنَّ الزمن مثل دائرة من اتّباع أرسطو وغيره. وأن هذا القول بإمكانه إنتاج فترة زمنيّة مضت في فترة أخرى حاضرة أو مستقبلة هُوَ قول أفلاطوني؛ لأنه يعتمد على قول أفلاطون بأن تعاقب السنين مهيئ لتكرار نفسه على مدى فترة محدّدة سماها بالسُنة العظمى. ويعتقد أفلاطون أنّ هذه السنة العظمى تدوم (36 ألف سنة شمسية)، ولذلك فنحن نتحفظ على القول السائد: «**إنّ التاريخ يعيد نفسه**» فهو لا يعيد نفسه في الحقيقة إنّما هُوَ سائر إلى الأمام باتجاه ملاقاة الله (جل شأنه): ﴿ **يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾ (**الانشقاق:6**).

ولذلك فإنَّ الزمان متجها باتجاه الغاية التي رسمها الله (جل شأنه) لا يتوقف ولا يرجع إلى الوراء، وأي لحظة نغادرها فلا سبيل إلى إعادتها أو استعادتها بأيّ حال من الأحوال. وظنون البعض بأنّ من الممكن أن يعاد إنتاج فترة جيل الصحابة أو التابعين في عصرنا هذا أو في المستقبل هُوَ اعتقاد خاطئ يتنافى عن مفهوم الزمن في القرآن الكريم ومفهوم التجديد وكذلك مفهوم التاريخ.

ورؤيتنا الإسلاميّة للزمن وسائر مَا يرتبط به من مفاهيم لا تسمح بذلك النوع من التصوّر بحال من الأحوال. وبنو إسرائيل بعث الله (تعالى) فيهم سيدنا المسيح مجددًا لما جاء به موسى وهارون ولذلك قال: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ (**آل عمران:50**) وحين طلبوا منه إزالة الإصر والأغلال عن شريعة التوراة قال قولته المشهورة: «**أما أنّني لا أستطيع أن أزيل نبرة عن حرف من الشريعة وسيأتي من بعدي رسول اسمه أَحْمَد بشريّعة تخفيف ورحمة**» وتلك بشارة السيد المسيح بسيدنا مُحَمَّد –صلى الله عليه وآله وسلّم.

والقرآن المجيد يعتبر تجديدًا لخطاب النبوات كلها ولكل مَا أنزله الله من وحي على أنبيائه ورسله ولذلك سماه الله بالمحدث فقال: ﴿ **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾ (**الأنبياء:2**) فالقرآن مجددًا لرسائل النبين كلها أي: أعادها إلى حالة الصدق وجددها وهيمن عليها؛ ولذلك كان خطابًا مطلقًا لا يقبل تبديلا ولا تعديلا ولا نسخًا ولا يوصف بتشابه.

وخطابه عالمي وشريعته شرعة تخفيف ورحمة ووضع للآصار والأغلال أنزل على قلب النبي الخاتم والرسول الأخير الذي لا نبي ولا رسول بعده فهو النبي والرسول الخاتم والشاهد على البشرية والذي اقتدت حكمة الله (جل شأنه) أن يجعل أمته من بعده شاهدة على الناس، فسماها بالأمة الوسط فقال (جل شأنه): ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...**) (**البقرة:143**)، كما أودع الله (جل شأنه) فيه المنهج إلى جانب الشرعة وقام رسول الله–

صلى الله عليه وآله وسلم- بتلاوته على الناس كما تلاه عليه جبريل، وبين من منهاج إتباعه وتطبيقه وشرعته السمحاء التي تصلح للعالم كله بما اشتملت عليه من قواعد التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال ورفع الحرج .

ولذلك كان التجديد مثل الأمر بالمعروف والالتزام بالكتاب وإتباعه والالتزام بمنهج رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم- بتلاوته وتعليم الناس آياته وتزكيتهم به والشهادة عليهم وقيادة حركته فيهم ومعهم وبهم عبر اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا حتى استقرت آياته في قلوب الناس وعقولهم وسادت شريعته مجتمعاتهم وبنيت عقولهم ونفسياتهم به فتحولوا إلى جيل من الربانيين بما كانوا يدرسون الكتاب ويعلمونه للأجيال التي تليهم :﴿ ...**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)** (**آل عمران:79**).

وسائر المؤشرات القرآنية نبهت إلى أن التجديد مثل الاجتهاد ومثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حالة أمَّة وليست حالة فرديَّة، وهو من فرائض الأمَّة التي لا يستقيم أمرها إلا إذا صارت عمليات التجديد ومتطلباته وما لا يتم التجديد إلا به فريضة على كل مسلم ومسلمة ليصبح حالة أمَّة لا حالة فرديَّة، وليكون عام شامل عموم الشريعة وشمولها، فلا يخلو أحد من أبناء الأمَّة من القيام بما يجعله واحدًا من العاملين لتجديد الأمَّة وإحيائها وملاحظة عوامل التغير أو التبدل شيئا فشيئا قبل أن يستفحل أمرها ويعم ضررها وترسخ جذورها وذلك يؤكد ما نذهب إليه من أن التجديد هو حالة أمة وفريضة عامة على الجميع أن يمارسوها كل في موقعه وفي إطار مسئولياته ويتداعوا ويتنادوا لملاحظة أي ظاهرة انحراف تلاحظ سواء في مجال الأفراد أو الأسرة أو المجتمع ونظمه إذ إن عوامل التغيير شأنها شأن الجراثيم والميكروبات الضارة والحشائش والنباتات المسممة والقاتلة لا تكتشف بسهولة ولا يلتفت الناس إليها بيسر بل لابد من ملاحظة ومتابعة تسمح للمجتمع كله أن يقوم بواجبه لتحصين الأمَّة من عوامل التغيير التي قد تبدأ صغيرة ضعيفة فإذا أهملت تحولت إلى وسائل قاتلة تستعصي آنذاك على محاولات التجديد، إننا نستطيع أن نلاحظ هذا في الإنسان الذي تبدأ عنده أمراض بسيطة لو أنَّه عالج نفسه منها

أول ظهورها لاستطاع بإذن الله الشفاء منها ولتوقفت عن الفتك بجسمه، وكذلك الحال في المباني وفي الحرائق وفي الكثير من أمور الحياة التي تبدأ حين تبدأ ضعيفة بسيطة يمكن السيطرة عليها بيسر لكن حين تترك لتستفحل وتقوى وتنتشر قد لا نتمكن من السيطرة عليها وقد تهلك الحرث والنسل وتدمر كل شيء.

إن مجال الأفكار لا يختلف كثيرًا عن مجال الأشياء إلا في أنَّ عملية رصد الأفكار والميز بين الضار والنافع منها والشديد الضرر والأقل ضررًا يحتاج إلى النبي وقد يخلو الزمن من النبي كما هو الحال بعد ختم النبوة فيحتاج إلى سائر عقلاء الأمَّة وعلمائها والمتخصصين في سائر مجالات الحياة والخبراء وأصحاب التجارب هذه الفصائل كلها إذا اجتمعت فقد تستطيع أن تصف أو تؤسس لمشاريع تجديد يمكن أن تجدد للأمة أفكارها في الدين والمجتمع وفي نظم الحياة وأساليب التعامل والتدريب على الالتزام بقواعد السلوك وما إلى ذلك . فما الذي جعل المسلمين يحولون التجديد من موقعه الشامل هذا إلى حالة فردية فقهية ولماذا تم الربط بين التجديد والدين وصدر التجديد كما صدر الاجتهاد من قبل ليحصر في الإتجاه الفقهي؟!.

من البين أن هناك ما ساعد على الانحراف في فهم هذا المفهوم وإدراك حقيقته كما حدث في مثل وكثير من فرائض الأمة وفي مقدماتها الاجتهاد، فقد عُد هذان الركنان (التجديد والاجتهاد) من فروض الكفايات، بل إن التجديد ذاته قد عُد من الأمور القدرية التي تحدث بشكل جبري قدري فعلى رأس كل مائة سنة يأتي لهذه الأمة من يجدد لها دينها، يريدون بذلك فقه التدين والممارسة الدينية ورووا في ذلك عن أبي هريرة – قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"؛ ولذلك وجدنا فكرة المجدد والمخلص مع كونها فكرة نصرانية في الأصل لكنها انتشرت عندها وصارت متداولة ووجد بعض أهل العلم بعد انتشار حالات الهزائم والإحباط أن انتشار أحاديث كهذا يمكن أن تقرأ في إطار المبشرات التي تدفع عن عقول العامة وقلوبها الشعور بالهزيمة والانسحاق والإحباط التام، وبالتالي فلن تتمكن من مقاومة أعدائها وخصومها ولكن

الأفكار كما قلنا سابقًا مهما كانت أو سلمت أو صححت فإنها تحمل معها أعراض جانبية ، فمن الأعراض الجانبية أن تداول هذه الأخبار إذا كان قد قاوم عمليات اليأس وأعطى بعض الآمال فإن هذه الأفكار أدت لدى البعض إلى نوع من التكاسل والتخاذل والشعور بأن الإنسان خال من المسئولية في هذا الأمر وأن الله (تبارك وتعالى) سيتولاه بنفسه بذلك الشكل الجبري، فكلما طال على الناس الأمد وقست منها القلوب وانحرفت في مفاهيمها وفهمها للدين وللدنيا فإنه لن تمضي مائة سنة إلا ويأتي الله بالمجدد الفرد الذي تم اختياره من بين الفقهاء بعد انتشار الفقه انتشارًا سرطانيًا بحيث صار المسلمون ينظرون إلى كل شيء بمنظار فقهي ينطلق من فتوى الأصل فيها أن تكون فردية يعالج بها الفقهاء ما يعرض للناس من أمور لا لتبين للأمة وسائل نهوضها وإعادة بناء حضارتها وعمرانها وإعادة فهمها لدينها. ولفهمت هذه الأحاديث المبشرة في إطار هيمنة القرآن الكريم وتصديقه لوجدنا أنَّ الله (تبارك وتعالى) قد وعد رسله والمتأسين بهم أن ينصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد بعد أن يستنفدوا كل وسائلهم ويبذل كل جهدهم بحيث يشعرون جميعًا بأنهم قد بذلوا ما لا مزيد عليه من الجهد في مجال مقاومة الباطل وتصحيح كل ما نجم عنه في الواقع وهنا يتدخل الله (تبارك وتعالى) فينصر رسله والذين آمنوا فقال (تبارك وتعالى): ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ (**غافر:51**)، ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (**الحج:41**)، ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ (**الحج:15**). "وكان حق علينا نصر المؤمنين".

إن أحاديث التجديد التي وردت تهيمن عليها آيات ظهور الدين أو تصدق عليها آيات ظهور الدين وتهيمن فالله (تبارك وتعالى) قد بين إضافة إلى ما تقدم من تفضله (تبارك وتعالى) بنصر رسله ومن صار على ضربهم وتأسى بهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد فإنه (جل شأنه) قد تكفل بظهور هذا الدين فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾

(التوبة:**33**)، ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ (**الفتح:28**)، ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (**الصف:9**) فهذا الظهور الذي تكفل الله (تبارك وتعالى) لدين الهدى والحق هو بيان للآيات الأخر الواردة في انتصاره الله ورسوله ومن يتأسون بهم ونصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وأن كراهة المشركين وعداوة الكافرين لم تقف حائلًا دون تحقيق ذلك الوعد الإلهي والربط بين الهدى والحق ربط بين فعل إلهي وكسب بشري فالحق يحقه الله بكلماته والهدى كسب بشري ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ (**محمد:17**)، وكل ذلك يبين أن انتصار الحق على الباطل يجتمع فيه التدبير الإلهي والكسب البشري من الرسل وأتباعهم وإلا فلا ينبغي أن تنظر النتائج دون تهيئة مقدماتها والأحاديث الواردة بكل تلك البشائر ما صح منها فالقرآن المجيد يصدق عليها ويضعه في إطار الصدق ونزله الله على عبده ورسوله وصدق رسول الله به: ﴿**وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (**الزمر:33**) وهؤلاء المتقون هم الذين يمارسون التجديد ويكون لهم دور الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس والشهداء الذين يشهدون على الناس وعلى الأحياء والحياة بما يجري فيها شهادة الحاضر الذي لا يغيب فيعمل على إنماء الإيجابيات وتعزيزها ويحارب السلبيات ويقاومها ويقاوم أهلها ويكون وسط ونموذجًا للخير والتقوى برؤيته وسلوكه وتصرفاته وما إلى ذلك فحين تفهم الأمور بهذا المنهج الذي رسمه رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وهو يتلوا على الناس آيات الله ويبين لهم كيفية اتباع ما نزل عليه وما تلاه عليهم ويحول إلى واقع يعيشوا الناس ويعيشوا بهم هو ما ينبغي أن تفهم حالات التقادم وقسوة القلوب وطول الأمد وجواب الأمة الوسط الخيرة عليه بالتجديد والاجتهاد وتعديل المسار.

الأنبياء والتجديد:

إنَّ النظر الدقيق في سير النبيين والمرسلين ومهامهم والأعباء التي حملوها وما حققوا من إنجازات أو دعوا أقوامهم إليه فخالفوهم وصدوا عن سبيل الله ووقفوا في طريق النبيين، فسائر تصرفات الأنبياء كانت تجديد فيأتي النبي قومه ليجدد لهم دينهم ودنياهم ويقدم نفسه إليهم باعتباره أسوة ومثالاً ونموذجًا يقتدى به يبرز ذلك بشكل واضح في مجموعة الرسل والنبين الذين قص الله علينا قصصهم ونبأنا بأخبارهم،

فسيدنا موسى وأخوه هارون كُلفا بتحرير بني إسرائيل من استبداد الفرعون وإعادة بناء بني اسرائيل من جديد، وربط التوحيد بتحريرهم من سلطان الفراعنة ودراسة تلك الرسالة وما أنزل الله في التوراة من هدى ونور يبين مصداق ذلك، وكلما طال على بني إسرائيل الأمد وقست منهم القلوب وبدأت ظواهر الانحراف عن الرسالة وهداية المرسلين تظهر فيهم؛ بعث الله إليهم من النبيين والمرسلين من يجدد لهم تدينهم.

فالدين نفسه عقيدة وشريعة وقيم ونظم ليس بحاجة إلى التجديد ولكن ما يحتاج التجديد هو فقه التدين لدى الناس، فالناس قد يعمل طول المدى وقسوة القلوب على إحداث تغيير في علاقتهم بالدين وفي فهمهم له ولدوره وفي فقههم لما جاء فيه أو اشتمل عليه وفي هذه الحالة تبرز الحاجة إلى التجديد وفي الحالة الإسرائيلية برز انحراف خطير بطول المدى وقسوة القلوب وذلك في إعلاء شأن الأسباب وتناسي وتجاهل خالق الأسباب والمسببات وقد كان موسى وهارون قد بذلا جهدًا كبيرًا لجعل التوحيد الخالص النقي لدى بني إسرائيل مستقر في القلوب والنفوس سائد في التعامل والسلوك ومع ذلك فقد كان بنوا إسرائيل كثير ما تختلط عليهم الأمور فيعظمون من شأن السبب وينسبون إليه صفة التأثير ويتجاهلون الله رب العالمين، ولقد لفت الله (جل شأنه) أنظارهم إلى ذلك بشكل كبير في لقاء موسى والعبد الصالح، فسيدنا موسى أنزل الله عليه التوراة والألواح والتوراة فيها هدى ونور وشريعة ومنهاج، وقد سأل عن أعلم أهل الأرض ففاته أن ينسب العلم بذلك إلى العليم الخبير فيقول مثلًا: أعلم أهل الأرض يعلمه الله، فكانت عملية لفت نظره (عليه السلام) إلى عبد صالح لم يؤتيه الله مثل ما أوتي موسى من كتاب وألواح وهداية ونور لكنه آتاه من لدنه علمًا سوف يتضح أنَّه قد يرجح على موسى في بعض ذلك العلم، فأخبر الله موسى بأن يذهب إلى مكان حُدد له ليلتقي بعبد آتاه الله من لدنه علمًا فعليه أن يتعلم منه ويسمع ويطيع والتقى العبد الصالح بذلك الشكل الذي بينته لنا سورة الكهف ورجاه أن يتبعه بشرط أن يعلمه في قوله (تعالى): ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ (**الكهف:66**).

ويأخذ التأديب الإلهي مداه ليقول العبد الصالح لسيدنا موسى إنَّه يخشى أن يفقد موسى صبره على التعلم منه والعلم يحتاج إلى طالب صبور مستعد لأن يصبر طويلا حتى يتعلم: ﴿**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ**

مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (**الكهف:67–69**) وإذا بسيدنا موسى يعد بتواضع أن يكون تلميذًا نجيبًا صابرًا فيقول ﴿.. **سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** (**الكهف:69**)﴾ ، فوعد بالصبر وتنفيذ أوامر المعلم وهما شرطان أساسيان من شروط التعلم واستفادة المتعلم بالعالم، ومضيا، وهنا أخل المتعلم بالشرط الأول الذي هو الصبر إلى أن يحدث له المعلم الذكر، ففقد صبره عندما رأى معلمه يخرق السفينة فإذا به ليقول له: ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾ (**الكهف:70–73**)، وهنا يبدو سيدنا موسى ناسيًا لأحداث طفولته التي لو تذكر بعض أجزاءها لما وجد نفسه في حاجة إلى التساؤل فهو في طفولته حين خافت أمه عليه أن يقتله الفراعنه أوحى الله إليها: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (**القصص:7**)، ﴿**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ (**طه:38–39**)، فقد ألقى أو وضع على خشبة وألقي في اليم وكان غرق من في مثل حاله شبة مؤكد لولا لطف الله (جل شأنه) وما سبق من تقديره بأن يحميه حتى يلقيه اليم بالساحل فيلتقطه آل فرعون دون أن يدرك أنه الطفل الإسرائيلى الذي كانوا يخافون منه أن يحرر بني إسرائيل، وسن فرعون شريعة قتل المواليد الذكور من بني إسرائيل لكي لا تكون لهذا الشعب فرصة التحرر من سلطان الفراعنة؛ ولأنَّه نسي فقد اعترض على خرق السفينة مع أن الخرق لم يكن بالقدر الذي يؤدي إلى الغرق كما هو الحال بالنسبة للخشبة التي وضع الرضيع موسى عليها وألقي في اليم، فأعطاه العالم فرصة ثانية ومضيا معًا فرأى العالم غلام فقتله فإذا بسيدنا موسي يقول له: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**﴾ (**الكهف:74–76**)، فسيدنا موسى عليه نزلت الشريعة الإسرائيلية شريعة التوراة وفيها: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى**

بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (**المائدة:32**)، فأي معلم هذا الذي أمر للتعامل منه وهو يخالف الشريعة بشكل واضح وصريح: ﴿ .. **قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ (**الكهف:74**)؛ ولذلك لم يتردد بأن يصف فعله بالمنكر فقال: لقد جئت شيئًا نكرا، وذكَّره المعلم بما كان قد اشترط عليه من الصبر حتى يحدث له ذكر، ولكن أنى له الصبر وهو يرى ما يعتبر لديه أنه جريمة قتل لبريء دون سبب أو عذر، ودون أن يظهر منه شيئا يستحق عليه القتل، ولم شعر بأن العالم سوف يفارقه طلب فرصة أخيرة، ليتعلم دون اعتراض فيها، فكانت قصة اليتيمين والجدار: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ (**الكهف:77**).

وقبل أن يفارقه العبد الصالح ذكر له أسباب كامنة وحكم يمكن إدراكها للمتأمل إذا تأمل والمتدبر إذا تدبر، فخرق السفينة كان إنقاذ لها من التخريب، وقتل الغلام كان بناء على تكليف إلهي لإنقاذ والدين أراد الله إنقاذهما من شيخوخة يدمرها هذا الغلام ويجعل منها عذاب شديد عليهما، وأمَّا الجدار ففيه رعاية لأيتام كان أبوهما صالحا، فأراد الله (تعالى) أن يبين أن صلاح الأب أو الوالدين له أثر عنده (جل شأنه) في حماية ما يتركان والعناية بهما، تفضلًا منه (جل شأنه) عليهما ما داما قد راعيا حق الله (تبارك ووتعالى) في حياتهما، ﴿**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾ (**الكهف:78–82**).

ولو عاد سيدنا موسى إلى شبابه لوجد أنَّه قد قتل قبطيًا لم يثبت عليه جرم؛ لأنَّه أراد أن ينتصر لإسرائيلي من قومه خاف عليه من ذلك القبطي فوكز موسى القبطي فقضي عليه، كما أنَّه حين ذهب

إلى مدين وأجر نفسه لشعيب –عليه السلام– حيث قد سقى للفتاتين ورفض أن يكافأ على ذلك مع أنَّه كان جائعًا ومعدوم ليس معه من المال ما يكفي لشراء قوت يومه فسقى لهما: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (**القصص:24**).

فذلك كله يندرج في إطار تجديد تم على يدى صاحب الرسالة نفسه وعلى يديه ظهر نموذج التجديد .

أمَّا سيدنا عيسى –عليه السلام– فقد صرح بمهمته التجديدية حين بعث إلى بني إسرائيل، وكان من أهم ما حمله إلى بني إسرائيل هو إحداث تجديد فيهم يسمح لهم بإدراك أنَّ الله (تبارك وتعالى) وراء كل شيء؛ ولذلك حين ما كان يريهم الآيات التي زود بها كان يربط تلك الآيات مباشرة بالله (سبحانه وتعالى): ﴿**وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (**آل عمران:49**).

وذلك كله يصب في إعادة تصحيح التوحيد وتجديد فهمهم له والتزامهم به ولم ينسخ التوراة.

ثم نجد الدور التجديدي أيضًا عند داوود وسليمان –عليهما السلام–، أمَّا داوود فقد جدد الخلافة في بني إسرائيل ليعطي للشعب الإسرائيلى فرصة التطهر النهائي من آثار الاستبداد الفرعوني والحاكمية الإلهيَّة المباشرة التي جاءتهم بعد ذلك، فكان داود –عليه السلام– أول خليفة في بني إسرائيل بعد موسى وهارون، ولم تكن خلافته مثل خلافة الصديق ثم الفاروق لرسول الله ثم عثمان ثم على –رضوان الله عليهم أجمعين– بل كانت خلافة نبي، وأمر أن يحكم الناس بالقسط وألا يشط أو يبتعد عنه، وأوتي آيات أخري مناسبة لمهامه، وذلك بأن علمه الله صنعة لبوس: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾ (**الأنبياء:80**)، ثم اختار لهم الله (جل شأنه) سليمان ملك، فهذا الشعب الإسرائيلى كان نموذج فريدًا عاش في ظل الإستبداد الفرعوني والحاكمية الإلهية والخلافة النبوية متمثلة بداوود والملكية النبوية ممثلة بسليمان ثم جاء دور ملوك عاديين، كل ذلك من أجل أن يخلصوا لله قلوبهم ويمارسوا التوحيد الخالص له (جل شأنه) لا يشركون به شيئًا. فهل تحقق ذلك فيهم ؟

ليقرأ من شاء القرآن الكريم ليعرف إلى أي مدى استطاع هؤلاء التخلص من الفقة السيئ للتدين الذي أصابهم وعاشوا عليه.